البابُ التاسعُ عشرَ

في مواعظِ العلماءِ، ووصاياهم للخلفاءِ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ يقولها الرجلُ المسلمُ عند سلطانٍ جائرٍ، فيُقتلُ عليها».

وقال عمرو بنُ عُبَيْدٍ، للمنصور: يا أميرَ المؤمنين؛ أعطاكَ اللهُ الدنيا بأسرِها، فاشترِ منه نفسَك ببعضها.

وقال الأوزاعيُّ لأبي منصور الخليفة: يا أمير المؤمنين إنَّ الملكَ لو بقي لمن قبلكَ لم يصلْ إليك، وكذلكَ لا يبقى لك كما لم يبقَ لغيركَ.

قال: ودخلَ على الرشيدِ بعضُ العلماءِ فقال له الرشيدُ: عظني، قال: هبِ الدنيا كلَّها في يدِك ودنيا مثلُها ضمَّت إليكَ، هب ما في المشرقِ والمغربِ يُجبى إليك، فإذا جاء الموتُ فما لك فيما في يدك؟.

وقال ابنُ عيينةَ: دخلتُ مع هارون على الفضيل، فلمّا نظرَ إليه الفضيلُ قال: حَسَنَ الوجهِ؛ قُلِّدتَ أمراً عظيماً، فانظر لنفسكَ. قال: فبكى هارونُ بكاءً شديداً، ثمَّ خرجَ.

---

(1) آل عمران: الآية (187).

وقال صالحٌ المريُّ: دخلتُ على المهديِّ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين احملْ للهِ ما أكلِّمكَ به، فإن أولى الناس أحملُهم للعظةِ والنصيحة في أمر الله، وجديرٌ أن تحملَ لقرابتِكَ من رسول الله ﷺ، وأنْ تَرِثَ أخلاقه، وتأمر بهديه، وقد رزقكَ الله من فَهْمِ العلمِ وإنارةِ الحجّة ميراثاً، قطع به عذرَكَ.

قال: ودخلَ شَبيب بن شبَّة على أبي جعفرٍ المنصورِ، وقال له: يا شبيبُ عِظني وأوجِزْ، قال: إنَّ الله لم يرضَ من نفسِه أن يجعلَ فوقَكَ أحداً من خلقِه، فلا ترضَ له أن يكونَ أحدٌ أطوعَ لله منك.

قال: ودخل منصور بنُ عمارٍ على الرشيد، فقالَ له: عظني، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، إن سليمانَ عليه السلام الذي سُخِّر له الطير، وعفاريت الجن والشياطين، أليس قد نعقَ عليه صائحُ الموتِ فأزعجه من قراره ووطنه، وسَلَبَه من نضارةِ مُلكِه وبهجته، فيالله ما الذي أبقاكَ بعدَ البقاءِ بعدَه؟

قال: ودخل أبو حازم على عبدِالملك بن مروانَ، فقال: يا أبا حازم؛ أتعرف ما حالنا عند الله؟ قال: نعمْ إن كنتَ من أولياءِ اللهِ فإنَّ مَثَلَهم كمثلِ غائبٍ عن أهلهِ زماناً، فلمّا أفضىَ إلى بيتهِ فرحَ هو وأهلهُ، وإن كنتَ من أعداءِ اللهِ فإن مَثَلَهُم كمَثَلِ عبدٍ أَبقَ من سيده زماناً، فأُتيَ به إلى سيِّده مُوثَقاً بسلسلة، فإنْ أردتَ يا أمير المؤمنين أن تعرفَ ما حالُكَ عندَ الله اعرضْ أعمالَكَ على كتابِ اللهِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[1]، قال يا أبا حازمٍ فأينَ رحمةُ اللهِ؟ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

(1) الانفطار: الآيتان (13 - 14).
(2) الأعراف: الآية (56).

قال: ودخلَ الثعلبـيُّ إلى بعض السلاطين، فقال: صُنْ شرفَكَ بتشريفِ الأكرمين، وقوتَك بتقويةِ المساكين، ونعمتَكَ بالإفضالِ على المحتاجين، لأنه كم من شريفٍ أرداهُ العجب من العوالي إلى معاطب الذل، وكم من مُتنعِّم أوردته الشدائد إلى مناهل الحزن، وإنما جعلَ اللّٰه فيك عزاً سنياً، وشرَفاً منيعـاً، ولساناً لطيفاً، وذِكْراً جليلاً، ومحبةً جليلـةً لِيَبْلُوكَ بحُسْنِ الشكر، ويُرَغِّبَـكَ في لزومِ الذخرِ والأجر، ليكونَ ذهنُك وهمتُّك فيما أولاكَ إلى ما يُزْلِفُـكَ إليه، لتنال الداريـن، فارغبْ إلى اللّٰه فإن مَمـرَّكَ عليه، وتواضعْ لأوليائـه فإنهـم شفعـاؤُك إليـه، وإنَّ أربح التجـارةِ ما فيها ربـحُ الآخرةِ والأولى.

الحكاية

حكـي: أنه لمـا دخلَ منصـورُ بنُ عمارٍ علـى أمـيرِ المؤمنين هارون الرشيـدِ قـال له: فإنَّ مـن تاب إليه حبـاه، ومن توكل عليـه كفاه، ومن أحسن إليه جازاه.